فلسطين عروس عروبتكم

فخر وانبهار..
وخزي وعار..

obeikandl.com

obeikandl.com

هل كان يمكنني أن أفعل شيئا آخر سوى أن أجهش في البكاء على الفور .. ؟؟ فأترك الصديق الذي نقل إليّ الخبر مندهشا ومحرجا في الوقت ذاته .. ولأقضي أنا بعد ذلك اليوم كله متحاشيا الناس فقد كان كل ما ألقاه ومن ألقاه ينكأ الجرح في قلبي فتمتلئ بالدموع عيناي ..

كان الصديق قد نقل إليّ ذلك الخبر الذي أذاعته قناة الجزيرة مرة واحدة دون أن تجرؤ على إعادة إذاعته .. فربما لو أذاعته مرة أخرى لقصفها قائد جند الشيطان – مجرم الحرب – بوش بالصواريخ ..

***

هل كان يمكنني أن أفعل شيئا آخر بعد ذلك المشهد .. .. لم أر المشهد بنفسي .. فكثيرا ما أتجنب رؤية المشاهد الأليمة فلم يعد في القلب متسع لمزيد ألم .. لكنني كنت قد استمعت لتوى من ذلك الصديق إلى ما حدث مع الشهيد محمد..

***

في واقعة الشهيد محمد يعيد التاريخ نفسه بصورة لا تقل جلالا أبدا .. يعيد واقعة أسماء بنت أبى بكر مع عبدالله بن الزبير رضى الله عنهما ..

هل أسيء الأدب حين أقول أن واقعة الشهيد محمد وأمه أم نضال فرحات قد تفوق الواقعة الأولى؟! على الأقل كان لديهم من الإيمان ومن السمو الجماعي والاجتماعي العام أيامها ما يشكل وقودا دافعا .. أما نحن فليس لدينا شيء .. ما حدث مع الشهيد محمد هو أنهم التقطوا له فيلم فيديو وهو يتلو وصيته الأخيرة .. وهذا حدث من قبل كثيرا حتى تعودت القلوب العمياء الصماء الجرداء القاحلة عليه .. الجديد في المشهد .. ما أذابني وصهرني وروعني وأبهرني .. أنه في هذا الشريط .. تظهر إلى جواره: أمه .. نعم .. أمه ..

هل يمكن أن يكون هذا المشهد قد تكرر في التاريخ قبل ذلك .. وهل يمكن أن يتكرر.. ؟؟ ..

***

كيف ..

كيف يا أختاه فعلتيها ..

أي نبل .. أي سمو .. أي رفعة .. أي فداء .. أي عظمة .. أي تضحية .. بل أي إيمان بأن ما عند الله خير وأبقي ..

أي مستوى يمكن للكائن البشرى أن يصل إليه ..

***

كيف كنت يا أختاه .. ؟؟

كيف كنت وأنت تضمينه إلى صدرك الضمة الأخيرة .. تدركين أنه بعد قليل قد لا يتبقى منه شلو تتعرفين به عليه ..

كيف كنت وأنت تقبلين جبينه قبلة تعلمين أنها القبلة الأخيرة ..

كيف وجف قلبك .. وكيف اختلجت مشاعرك ..

وعندما غادرك وأنت تعلمين أنك لن تلقيه بعد هذه اللحظة في هذه الدنيا أبدا .. كيف كنت ..

كيف كنت؟! .. كيف انتظرت دوى الانفجار .. ؟! ..

كيف مرت الساعات بل الدقائق بل الثواني ..

أم أنه ليس من حقي أن أسأل هذا السؤال فليس لأمثالنا أن يفهموا مثلك .. وما تمثلينه .. وما يمكن أن يدور في نفس أبية شامخة مثلك .. نحن المدنسون بحكامنا .. المقيدون بعجزنا .. المسربلون بخزينا والغارقون في بحر من العار ..

***

هل كان يمكنني أن أفعل شيئا آخر ..

هل كان لي – على سبيل المثال – أن أخفي عنكم يا قراء دموعي تلك؟! ..

أن أستخفي منكم خجلا ..

بل أولى لكم فأولى .. ثم أولى لكم فأولى أن تخجلوا أنتم لأنكم لا تبكون .. فإذا بكيتم أولى بكم أن تخجلوا لأن الدموع لم تكن دما ..

***

هل كان يمكنني أن أفعل شيئا آخر .. أن أحتفظ – على سبيل المثال – بسمت الكاتب الوقور .. الذي يدعى الحكمة فيستخلص العبرة وينطلق ليحلل وينظر وكأنه

يملك بين يديه ميزان الصواب والخطأ والحق والباطل ..

كاتب وقور؟! ..

ما من أحد منا كاتب وما من أحد منا وقور وإنما نقف على أعتابك يا أم البطل الشهيد كي ننبهر وكي نتعلم .. وما أقل من يتعلم ..

كاتب وقور ..

وهل تبقى منا كتّاب؟ وهل تبقى لدينا وقار ؟. وما من أحد منا إلا وقد أجرى حساباته كي يتعايش مع نظم حكم خائنة وعميلة .. فخان الأكثرون وهانوا وباعوا ونافسوا الحكام في كل ذلك .. وراح الباقون – مثلى – يجترون العار والعجز في صمت مخزي ..

أنت يا أم الشهيد لم تستسلمي للصمت ولا للخزي ولا للعجز ولا للعار ..

فعلمينا يا أم الشهيد كيف فعلتيها وإن كنت أشك أننا يمكن أن نتعلم نفس شكى في أن تنبت الأرض الخراب اليباب مهما هطل عليها المطر ..

نحن الفخورون بسلامة أبناء لا يصيبهم خدش ولا يفقدون حتى قلامة ظفر ..

نحن الفخورون بسلامة أبناء نرى أن مقتضيات سلامتهم لا تأتى إلا بمحو هويتهم ..

نحن الصامتون حتى على ذلك النداء العاجز الصارخ الذي انطلق من فلسطيننا الحبيبة أمس الأول والمرأة تصرخ مستنجدة بالعالم الداعر أن يرسل طبيبا يخترق حصار الدبابات الإسرائيلية كي ينقذ أمها من الغيبوبة .. أما بالأمس .. فقد كانت المرأة تواصل الاستنجاد بذات العالم الداعر .. لا لكي يرسل طبيبا .. بل « حانوتيا » يدفن الأم .. كانت الأم قد ماتت .. وكان الشرف فينا يموت .. وكانت قنواتنا الفضائية تهزل وتدعر ..

فلنهنأ ونحن نخب في عار النجاة الدنيء ..

فليهنأ أيضا الكتاب الكذابون والصحف العميلة والحكام الخونة أما ذو الدين والكرامة والنخوة فليجرع غصص الهزيمة والعار ..

ولتهنأ أيضا تيك الداعرات اللائى يدعين ريادة حرية المرأة فلا يتنادين إلا بالحفاظ على بظر وغلفة، ولا يفهمن من الحرية إلا حرية العهر ..

فلتهنأ الداعرات اللائى لم يفهمن ولن يفهمن أبدا أنه لم يكن لأم نضال فرحات أن

تضحى هذه التضحية لولا عهرهن وعهر مجتمعاتهن وحكومات تتستر عليهن لأنها مثلهن .. وأن أم نضال فرحات هي الأخرى امرأة كان عليهن لو احتفظن من الشرف بمثقال حبة خردل أن يدافعن عنها ..

***

يا أم نضال فرحات .. أقسم أنك قد آمنت وأوفيت ..

أقسم أنك لمعة نور وسنا برق من ذلك الذي انفجر في غزوة الخندق فرأى الرسول صلى الله عليه وسلم مصارع كسرى وقيصر ..

أقسم أن امرأة مثلك لو أقسمت على الله لأبرها ..

أقسم أن شعبا تنتمين إليه لا يمكن أن ينهزم ..

أقسم أنك في الدنيا من يمسح عنا أمام التاريخ بعض عارنا ..

وأن عملك يوم القيامة كفيل بالشفاعة لجيل ..

أقسم أنك أعدت إلينا إيمان الصحابيات الأوليات ..

تماما كما أعاد أسامة بن لادن عصر الصحابة والتابعين ..

فخبرينا يا سيدة نساء أهل الأرض الأولى:

كيف نتعلم منك ؟

لكن ..

أنى لنا ؟. أنى لنا .. أنى لنا ؟.

***

يا سيدة نساء أهل الأرض الآن:

أعطيتنا الفخر والانبهار ..

حتى لو كنا غارقين في بحور العجز والعار